آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية
السنة الحادية والعشرون، العدد الثاني، الخريف والشتاء ١٤٣٩-١٤٤٠ هـ .ق، ٦٩-٩٣

ظهور وتوسع المعتزلة في العراق
تحليل فى إطار نظرية الانتشار

نير دلير*

الملخص

كانت قضية المعتزلة وتوسعها في العراق من القضايا المهمة جداً في الدراسات الخاصة بهذا المجال. لذا، يتطرق هذا البحث إلى سبب انتشار أحد التيارات الرئيسة في التاريخ الإسلامي وهو تيار المعتزلة في العراق بالاعتماد على نظرية الانتشار، وذلك بالتركيز على مدينتي البصرة وبغداد. تبين هذه النظرية انتشار ظاهرة محددة مقارنة بالأماكن الأخرى. تشير نتائج البحث القائمة على نظرية الانتشار المنتظم إلى تأثير البيئة الجغرافية على ظهور مذهب المعتزلة وانتشاره ضمن إطار الزمان والمكان، بالإضافة إلى تصنيف فترة انتشار المعتزلة على أساس الشروخ الداخلية والعلاقات بينهم وبين الخلفاء، وليس على أساس الترتيب الزمني، بينما تشير نتائج البحث الأخرى إلى أن المناظرات وجهاز الخلافة ونهضة الترجمة والموالي كانت من أهم قنوات انتقال المعتزلة وانتشارهم.

الكلمات الرئيسة: المعتزلة، البصرة، بغداد، نظرية الانتشار، جهاز الخلافة.

١. المقدمة

يعد ظهور وتكوين فرقة المعتزلة أحد أهم أحداث التاريخ الإسلامي حتى الآن، وقد كان له تأثير

* أستاذة مساعدة فى كلية التاريخ، آكاديميه العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، dalirNh@yahoo.com
تاريخ الوصول: ١٣٩٧/٦/١٦، تاريخ القبول: ١٣٩٧/١٠/٩

كبير على فكر المسلمين وقراءاتهم للدين (القرآن والسنة)، لكن القضية المهمة في هذا البحث هي ظهور المعتزلة وانتشارهم في البصرة وبغداد، وأنهم كانوا أكثر نشاطاً في هاتين المدينتين من أية مدينة أخرى في نشر أفكارهم، بل وكانت لهم علاقة بالسلطة، وهذا عامل مهم في انتشار المعتزلة في المدينتين. تعتبر البصرة وبغداد مدينتين حديثتين نسبياً بالمقارنة مع الحرمين (مكة والمدينة) والإسكندرية وأنطاكية وحتى الكوفة، التي تشكلت في الوقت نفسه مع البصرة، لكن ظاهرة المعتزلة ظهرت في البصرة ونشأت في بغداد. وبشكل أساسي، كان تيار المعتزلة ينمو في البيئة العراقية، وكان ينظر إلى العراق على أنه نشأ العقلانية في التاريخ الإسلامي. القضية المهمة هي لماذا ظهر تيار المعتزلة في منطقة جغرافية محددة وتوسع فيها مع مرور الوقت؟ وما هي ملامح البصرة وبغداد والتي جعلتهما مكاناً مناسباً لولادة فرقة المعتزلة بصفتها من الفرق العقلانية؟

لفهم هذه المسألة بشكل أفضل استناداً إلى نظرية الانتشار، سنقوم بتحليل ظهور المعتزلة وانتشارهم في البصرة وبغداد، وهي نظرية تشرح كيفية انتشار ظاهرة محددة أو تحديث مع مرور الوقت وضمن نطاق مساحة جغرافية معينة، للعثور على أسباب تكون و انتشار ظاهرة أو حدث ما من منطقة إلى أخرى.

١.١ الإطار النظري

نظرية الانتشار: قدم Everett. M. Roger أحد التعاريف الأساسية للانتشار حيث يقول: «الانتشار هو عملية يتم فيها انتقال ظاهرة جديدة عبر قنوات محددة بين أعضاء النظام الاجتماعي؛ وبالتالي، فإن الانتشار هو نوع معين من التواصل يرتبط بالأفكار الجديدة وهو عملية اتصال يقوم فيها الفاعلون ببناء ونشر المعلومات من أجل التوصل إلى فهم وإدراك مشترك ...»؛ (Rogers, 1971: 5). ويعتقد Lawrence A. Brown أن: «الانتشار عبارة عن انتقال ظاهرة محددة من مكان إلى آخر على أساس العناصر الجغرافية الرئيسية التي تشمل المسافة والجهة ومتغير محدد وكذلك فهي مبنية على خرائط تتغير من زمن إلى آخر» (Brown, ٢٠١٥:٤٠٦). قام تورستن هاغر ستراند عام ١٩٥٣م. بطرح نظريته حول الانتشار والتي استخدمت من قبل خبراء في حقول علمية أخرى مثل الاقتصاد والأنثروبولوجيا والتاريخ وغيرها.

۲.۱ مبادئ وأسس نظرية الانتشار

طرح ستراند عدة مبادئ اعتبرها العوامل المؤثرة في عملية الانتشار (شكوئي، ۲۰۰۳: ۳۰۵-۳۰٦؛ Haggett ,۱۹۷۲: ۳۵۰).

۱.۲.۱ البيئة الأولية أو المنشأ

المجال والبيئة الأولية هما من أهم عوامل ظاهرة الانتشار. يعتقد ستراند أن البيئة التي تتشكل فيها ظاهرة ما مهمة جداً لأنها تتضمن مجموعة من العوامل في تطورها، اعتمادا على السياق والنسيج نفسه، لذلك فإن معرفة البيئة الأولية لكل ظاهرة يمكن أن تؤثر بشكل كبير على فهمها لهذه الظاهرة ، وهذه البيئة الأولية قابلة للدراسة على حد سواء من الجوانب البشرية والطبيعية.

۲.۲.۱ الزمن

تنتشر الظاهرة بعد تكونها في مناطق أخرى مع مرور الوقت، لذلك يلعب الوقت دوراً أساسياً في نشر هذه الظاهرة، ومعرفة الفترات الزمنية لانتشار أية ظاهرة تؤدي إلى فهم أفضل للظاهرة وفترات الارتقاء والانحطاط.

۳.۲.۱ الموضوع أو الظاهرة

الظاهرة نفسها هي واحدة من العناصر الرئيسية للانتشار، لأن الظاهرة نفسها لديها القدرات والإمكانات التي يمكن أن تؤدي إلى الانتشار.

٤.۲.۱ مسار الحركة

في الواقع، فإن ظاهرة الانتشار تصل إلى الوجهة عبر تيارات ومسارات، ومعرفة هذه التيارات والمسارات، يلعب دوراً هاماً في معرفة كيفية انتشار الظاهرة.

٥.۲.۱ الوجهة

إنه المجال والمكان الذي تنتشر فيه الظاهرة بمرور الوقت، ولذلك من المهم معرفة سبب انتشار

الظاهرة في مكان معين بالنسبة لمكان آخر، ولماذا تنتشر هذه الظاهرة بسهولة في مكان ما، ولكنها لا تنتشر في منطقة أخرى حتى المجاورة لها؟

٣.١ خلفية البحث

في سياق المعتزلة، وظهور الأصول والمعتقدات والعملية التاريخية لهذه الفرقة، ألفت الكثير من الكتب والمقالات، لكن لا يوجد كتاب أو مقالة تعتبر المعتزلة ظاهرة ناشئة مبنية على نظرية الانتشار تدرس سبب انتشار المعتزلة بمقاربة جغرافية والاستفادة من نظرية الانتشار. وكما ذكرنا أعلاه ، فقد كتبت مقالات كثيرة عن ظهور المعتزلة مثل "تاريخ ومعتقدات المعتزلة" لمؤلفها دي غيمارت الذي ركز على عملية التكوين التاريخي للمعتزلة وأفكارهم، وتطرق في الغالب إلى العناصر داخل الفرقة والمسار العام لمعتقداتهم، لكنه لم يذكر البيئة الجغرافية وتوزيعهم، وفي كثير من الأحيان يكرر ما قاله الآخرون. هناك مقالة أخرى تسمى «التفسير التاريخي والكلامي لمدرسة المعتزلة في البصرة وبغداد» لسيد موسى جاجرمي الذي تطرق إلى المدرستين الرئيسيتين للمعتزلة وهما البصرة وبغداد من زاوية الاختلاف في المعتقدات، ولم يذكر السبب في تشكيل المدرستين جغرافياً وانتشارهما، ولا يدرك القارئ تقريباً السبب في تشكيل المدرستين بموقفين مختلفين. وهناك مقالة «وجهات النظر المختلفة لمعتزلة البصرة وبغداد» من تأليف يعقوب جعفري، وهي تشير إلى نقاط التمايز بين عقائدهم وقضية المقال، متسائلة عن سبب كون البصرة وبغداد مدرستين أساسيتين للمعتزلة.

يتطرق البحث الراهن إلى دراسة ظاهرة المعتزلة في هاتين المدينتين بالاستناد إلى نظرية الانتشار. لذلك، يختلف موضوع هذا البحث من حيث المناقشة والتحليل عن تلك البحوث التي تتعامل فقط مع ظهور المعتقدات، لأن الفئات والتحليلات والتفسيرات تستند إلى نظرية الانتشار، ومن هذا المنظور، فهذا البحث يشير لفهم سبب ظهور المعتزلة وانتشارهم.

أطروحة دكتوراه للباحث عثمان يوسفي وعنوانها نشر وتوسيع المذهب الفقهي للإمام الشافعي حتى نهاية القرن الخامس الهجري: الأسس والبنى التحتية (١٣٨٩) استفاد الباحث من نظرية الانتشار لتبيين التوسيع الجغرافي للمذهب الشافعي ويعتبر هذا مِن خلفية البحث،

ويبدو من عنوانه انه لا علاقة له بالمذهب الشافعي. تجدر الإشارة إلى أن العديد من المقالات قد ألفت في مجال نظرية الانتشار ومجالات وموضوعات أخرى مثل «نظرية انتشار الثورة الإسلامية في إيران وانعكاسها في السعودية» بقلم إبراهيم برزكر و «تأثير الثورة الإسلامية في إيران على الشيعة الباكستانية على أساس نظرية الانتشار» بقلم إحسان كامران وآخرين. ومع ذلك، فبالرغم من تطبيق نظرية الانتشار، فإن إشكالية المواد سالفة الذكر لا تدخل في نطاق هذا البحث.

٢. المعتزلة بمثابة ظاهرة انتشار

كظاهرة جديدة، أصبح المعتزلة من الحركات الرئيسية المؤثرة في التاريخ الإسلامي، والتي لعبت دوراً هاماً في العلوم الفكرية الإسلامية، ولا سيما الفلسفة، ولكن بصرف النظر عن ذلك، فإن المعتزلة ظاهرة ناشئة للنظام الحكومي (الخلافة) ولهم جاذبيتهم واداؤهم الذي أدّى إلى اهتمام الخلفاء بهم مثل (هارون الرشيد، المأمون، المعتصم، الواثق) (الذهبي، د.ت: ١٢/٢٠؛ ابن النديم، ١٩٦٤: ٣٠٣-٣٠٢). بعد العلاقة والتفاعل مع الخلفاء، وجد المعتزلة قدرة أكبر على نشر أفكارهم في أماكن أخرى، لكن التركيز الرئيسي لانتشارهم كان في البصرة وبغداد (رباني كلبايكاني، ١٩٩٨: ٢٥٧) وأصبحت هاتان المدينتان مركزاً لزعماء المعتزلة، لكن انتشار المعتزلة في البصرة وبغداد ليس متجانساً، بل قائماً على اتجاهين مختلفين لكل من مدرستي البصرة وبغداد، ومنطقتين جغرافيتين بينهما اختلافات في الآراء. (ولوي، ١٩٨٨: ٣٥٤-٣٥٥). ومع ذلك، يعتقد البعض أنه على الرغم من أن المعتزلة قد تم تقسيمهم في البداية إلى منطقتين جغرافيتين، إلا أنهم أصبحوا في وقت لاحق أكثر ارتباطاً بالموقفين: «... العناوين التي أصبحت لاحقاً ذات معنى اصطلاحي لم تشر إلى منطقة جغرافية معينة ولم تكن مرتبطة بموقع جغرافي محدد ...» (غمارت، ٢٠٠٣: ١٦١). لكن من غير الممكن تجاهل انتشار المعتزلة على أساس المجال الجغرافي، لأن الأجواء والبيئات التي سكنها المعتزلة أثرت على أفكارهم. استناداً إلى التعريف الذي تقدمه نظرية الانتشار، فإن مدرسة المعتزلة ظاهرة انتقلت عبر قنوات مختلفة وانتشرت بين أفراد النظام الاجتماعي والمناطق الجغرافية المختلفة.

١.٢ المنشأ والبيئة الأولية لظهور المعتزلة

وتتفق المصادر على أن نشأة المعتزلة كانت في البصرة وهي المصدر الرئيسي لهم، لكن لماذا تعتبر البصرة النقطة المركزية الأساسية لظهورهم؟ وما هي الظروف السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية وحتى الجيوسياسية التي كانت تهيمن على البصرة حيث تشكلت التيارات الأولى للعقلانية؟ ولماذا لم تكن مدن أخرى مثل دمشق ومكة والمدينة والكوفة وغيرها المكان المناسب لتجمع هذه الحركات العقلانية؟ للإجابة على هذه الأسئلة وفهم سبب ظهور المعتزلة في البصرة، يجب إعادة النظر في الأوضاع. كانت البصرة والكوفة من المدن الحديثة الإنشاء التي تم إنشاؤها لأغراض عسكرية في عهد خلافة عمر بن الخطاب. وبما أن أية ظاهرة تتشكل في إطار تاريخي ويعود تاريخها إلى السياق الذي نشأت فيه هذه الظاهرة، لذلك فإن المعتزلة ظاهرة استثنائية من نفس السياق. وبالتالي يتم تحديد الموقع الجغرافي للبصرة أولاً من خلال وصف بعض المصادر:

وصف اليعقوبي جغرافيا البصرة على النحو التالي: «والبصرة كانت مدينة الدنيا ومعدن تجاراتها وأموالها وهي مدينة مستطيلة تكون مساحتها على أصل الخطة التي اختطت عليها في وقت افتتاحها في ولاية عمر بن الخطاب في سنة سبع عشرة فرسخين في فرسخ فالباطنة منها وهي الجانب الذي يلقى الشمال تشرع على نهرين لها أحدهما نهر يعرف بنهر ابن عمر» (اليعقوبي، ١٩٨١: ١/١٠٢-١٠١). كما وصف القزويني البصرة بأنها مدينة شهيرة بالقرب من البحر، أرضها مالحة ومياهها مالحة، لأن البحر في حالة المد يدفع نهري دجلة والفرات إلى الخلف في هذه المدينة (القزويني، ١٩٩٤: ١/٣٦٨) وكما ذكرنا أعلاه، فإن مدينة البصرة تطل جغرافيا على البحر، الأمر الذي وفر الرخاء الاقتصادي وسهولة التواصل مع أماكن أخرى، لكن المقدسي بين ظروف البصرة أيضاً جغرافياً واقتصادياً وفكرياً: «... وحمّاماتها طيّبة والأسماك والتمور بها كثيرة ذات لحم وخضر واقطان والبان وعلوم وتجارات غير انها ضيّقة الماء منقلبة الهواء عفنة عجيبة الفتن» (المقدسي، ١٩٨٢: ١/١٦٣) ويقول كذلك: «... ويكون بالبصرة حرّ عظيم غير ان الشمال ربّما هبّت فطاب وقرأت في اخبار البصرة عيشنا في البصرة عيش ظريف، إن هبّت شمال فنحن في طيب وريف، وان كانت جنوب فإنّا

في كنيف، ورأيتهم إذا كانت جنوب في ضيق صدر يلقى الرجل صاحبه فيقول ألا ترى ما نحن فيه فيجيبه نرجو من الله الفرج» (المصدر نفسه: ١٧٣).

وقبل أن تكتسب البصرة أهمية جغرافية وطبيعية وإقليمية، اتسمت جغرافيتها البشرية والعلمية بالأهمية. قال المقدسي حول البصرة و سبب انتشار نواحيها، إنه بأمر الخليفة عمر بن الخطاب قد أمر عامله حول بناء البصرة بين فارس وبلاد العرب على حدود العراق وعلى ضفة بحر الصين، لذا لما اتفقوا على مكان البصرة، نزلت العرب بها، لذا المناطق في البصرة متفرقة (مقدسي، ١٣٦١: ١/١٦٢؛ للتوسيع: اصطخري، ٢٠٠٤: ٥٦–٥٨) البصرة هي ملتقى الأفكار الشائعة في القرن السابع الميلادي. التقت ثلاث حضارات كبيرة هي الفارسية والهندية واليونانية (من خلال جندي شابور) في البصرة، كما التقت هناك الأديان والمذاهب الرئيسية مثل اليهودية والمسيحية والغنوصية والمندائية والرواقية والمانوية وغيرها من الأديان. (ابن فقيه، ١٤١٦: ٥٥) حدثت جميع هذه الاتصالات واللقاءات في سياق حدث مهم جداً وهو الإسلام. هذا هو السبب في تأسيس أول جامعة إسلامية رئيسية في البصرة. من الواضح أن إحدى النتائج الرئيسية لمثل هذه البيئة الثقافية هي ظهور المدارس العقلانية، لأن أتباع الديانات المختلفة يمكنهم التفاعل مع بعضهم البعض في هذا السياق.

ويتابع المقدسي وصفه لسمات أهل البصرة قائلاً: «وبالبصرة مجالس وعوامّ السالميّة وهم قوم يدّعون الكلام والزهد وأكثر المذكّرين بها منهم ولا يتعاطون الفقه فمن تفقّه منهم تفقّه لمالك وذكروا ان صاحبهم ابن سالم كان يتفقّه لأبي حنيفة .. وأكثر أهل البصرة قدريّة وشيعة وثمّ حنابلة» (المصدر نفسه: ١٧٤–١٧٥). يشير المقدسي إلى ازدهار المعرفة وإقامة مجالسها في البصرة، لكن هذه التجمعات والاهتمام بالعلوم والمعرفة في البصرة يرجع إلى ارتباطها بالبلدان الأخرى، حيث تم نقل علوم البلدان الأخرى إلى البصرة وجعلها كمركز للعلم والمعرفة. ولذلك كانت البصرة مجاورة لجندي شابور التي ورثت العلوم العقلية اليونانية ، ومنذ عهد خسرو أنوشيروان، أصبحت هذه المدينة مدرسة لتدريس وتعليم جميع أنواع العلوم، ومع هجرة بعض الأفلاطونيين الجدد إلى المدينة بسبب الضغط الروماني، أصبح لتدريس الفلسفة شكل آخر في جندي شابور. ولذلك أصبحت جندي شابور من أهم مراكز نقل

العلوم إلى البصرة ومن ثم بغداد بعد ظهور الإسلام، ونظراً لتعامل البصرة مع مراكز تعليم الفلسفة اليونانية، فقد تأثرت بأفكار الفلاسفة اليونان وهذا ما دفع بالمعتزلة وحتى إخوان الصفا إلى الظهور فيها للمرة الأولى (أوليري، ١٩٩٥: ٢٢٨-٢٢٧).

خسرو أنوشيروان الذي أطلق عليه في المصادر لقب «الملك الحكيم» (الثعالبي، ١٩٨٩: ٢٩٠)، «الملك المحب للعلم» (الفردوسي، ٢٠٠٦: ١٢٦١)، «المحب للأدب وصاحب رأي دقيق في الفلسفة اليونانية» (وينتر و ديغناس، ٢٠٠٧: ٢١٧؛ نقلاً عن أغاثياس)، بذل الكثير من الجهد لتنمية الفلسفة والحكمة في جندي شابور. ومما لا شك فيه أن وجود الفلاسفة ورجال الحكماء الأفلاطونيين، بعد إغلاق أكاديمية أثينا ولجوئهم إلى بلاط خسرو أنوشيروان، قد أثر أيضاً على نظرته للفلسفة وفلسفته وحكمته، حيث يقال أن بيريسكيانوس ألف كتاب «أجوبة الفيلسوف بيريسكيانوس على أسئلة الملك خسرو الفارسي»، وتوجد الآن مخطوطة بخط يده في مكتبة سان جيرمان في باريس (تفضلي، ١٩٩٧: ١٦٠؛ جليليان، ٢٠١٣: ٨٩). كما ذكر ابن النديم في الفهرست كتاباً بعنوان «في الأسئلة المرسلة من ملك الروم إلى أنوشيروان على يد بقراط الرومي»، وكتاباً بعنوان «إرسال ملك الروم لفلاسفة إلى ملك إيران وأسئلة في الحكمة» (ابن النديم، ١٩٨٧: ٣٨٤). ومن حكماء جندي شابور الآخرين، والذي لعب دوراً هاماً في حب أبي جعفر المنصور العباسي للعلم، أبو أيوب المورياني، الذي عاش في أواخر العهد الأموي حتى عهد حب أبي جعفر المنصور العباسي، وكان ذا وجهة نظر في الطب والفلسفة والحكمة والحساب (جهشياري، ١٩٧٨: ٦٥). وهكذا، فإن العديد من النصوص الفلسفية في العهد الساساني ترجمت إلى اللغة الفهلوية، أو ترجمت من اليونانية والسريانية إلى الفهلوية، ويجب اعتبار هذه النصوص الفلسفية عاملاً هاماً في تشكيل الفلسفة الإسلامية (ابن النديم، ١٩٨٧: ٢٧٤؛ كاهن، ١٩٨٤: ٣٦٦-٣٦٥؛ جليليان، ٢٠١٣: ٩١).

لذلك، تمكنت البصرة كمركز أساسي للمعتزلة بسبب التواصل البحري من بلوغ مستوى من الاستقرار الاقتصادي، كما استفادت من منجزات الحضارات الأخرى والعلوم العقلية اليونانية التي دخلت إليها من جنديشابور، وكان من الطبيعي أن تزدهر فيها العلوم العقلية أكثر من معظم

المدن الإسلامية الأخرى، وقد شكلت مجالاً مناسباً للبحوث الفكرية مما ساعد على ظهور القدرية أسلاف المعتزلة، وقام أشخاص مثل حسن البصري بإقامة المحاضرات والاجتماعات لأجل البحث والمناقشة. كان المعتزلة الذين يعتبرون تياراً عقلانياً، نتاجاً لمثل هذه العوامل.

٢.٢ زمن انتشار ظاهرة المعتزلة

على غرار الطوائف الإسلامية الأخرى، واجه المعتزلة العديد من التقلبات في حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية. قسم الباحثون تاريخ المعتزلة وفكرهم ومسارهم التطوري (أكثر من ٥ قرون) إلى فترات مختلفة من التطور والسلطة والخبرة في العصر الذهبي، فضلاً عن الضعف والانحدار والسقوط، محددين الإطار الزمني لكل منها. ويجب اعتبار وجود هذه الفترات التاريخية المختلفة للمعتزلة نتيجة لمجموعة من العوامل الخارجية والداخلية. ومع ذلك، يجد الكتاب عموماً أن أكبر تأثير على هذه القضية هو رضا الحكام والخلفاء (العوامل الخارجية). هذا هو السبب في أن الفترة التاريخية لهذه المجموعة قد تم تقسيمها إلى أزمنة مختلفة بعد الظهور الرسمي لهم. وبهذه الطريقة، تنتقل كل ظاهرة بعد تشكلها إلى المناطق المتاخمة والأقاليم الأخرى، ولكن هذا الانتشار يحدث في سياق زمني بالتناوب، مما يعني أن الظاهرة تنتقل بسرعة أكبر في برهة زمنية محددة، ولكن في وقت آخر، تعاني هذه الظاهرة من تقلبات. وقد انتشرت ظاهرة المعتزلة أيضاً إلى المناطق المجاورة بعد تكونها، وانتشرت في فترات زمنية مختلفة، ولذلك يمكن القول أن انتشار المعتزلة حدثت في فترتين زمنيتين، واحدة داخلية وتتصل بالفجوة الأيديولوجية بينهم، والتي أدت إلى الانفصال وهجرة كبارهم إلى مدن أخرى بما في ذلك بغداد (ابن النديم، ١٩٦٤: ٢٠٥) والأخرى ترتبط بالسلطة وجهاز الخلافة الذي كان المعتزلة على علاقة به. وهكذا، فإن انتشار المعتزلة في هذه الحالة تحدده فترة الخلافة، وعندما يتعلق الأمر بوقت انتشار المعتزلة، فإن فهم العلاقات وتفاعلاتهم مع الخلفاء يؤدي لاستنتاج التقلبات التي شهدها انتشار المعتزلة خلال فترات زمنية مختلفة. من الجدير بالذكر أن نشر أفكار المعتزلة تم على يد واصل بن عطا الذي أرسل تلاميذه إلى اليمن وإيران وأرمينيا وآسيا الوسطى وغيرها بخطة واضحة، طالباً منهم الترويج لمبادئهم الفكرية.

٣.٢ زمن الانتشار على أساس الفجوة الداخلية

وكما أشرنا أعلاه، فإن أحد عناصر انتشار المعتزلة في السياق الزمني هو الفجوة الداخلية التي أدت إلى مغادرة بعض شيوخ المعتزلة لمدينة البصرة، لكن أهم وأبرز انتشار زمني للمعتزلة حدث على أساس الإختلافات الإيديولوجية عندما حدث اختلاف في الرأي بين بشر بن معتمر و واصل بن عطا فغادر ابن معتمر البصرة إلى بغداد (جعفريان، ١٩٩٣: ٥١). ومع أن انتشار مدرسة المعتزلة حدث قبل بشر بن معتمر، لكن هناك بعض العوامل التي أثرت على هذا النشر. شكل بشر بن معتمر تيار المعتزلة في بغداد، والذي تميز بنوع معين من التفكير المعتزلي المختلف عن معتزلة البصرة (نوبختي، ١٩٧٩: ١٩)، وأصبحت إقامته في بغداد السبب وراء انتشار كلام المعتزلة وتشكيل مدرسة جديدة في تلك المدينة، وتوسع بالتدريس بإقامة محاضرات حول مدرسته. وكانت لديه أيضاً علاقات وثيقة مع فضل بن يحيى البرمكي. ألقى هارون الرشيد ببشر بن معتمر في السجن متهماً إياه بأنه رافضي، وربما كان السبب وراء هذه التهمة هو الإيمان بحق الإمام علي (ع) في الحرب ضد خصومه، وكذلك قضية الحكم.

وعلى عكس التصورات السائدة، فقد كان الانتشار الرئيسي لمدرسة المعتزلة في السنوات الأخيرة من الحكم الأموي وفي عهد أبي جعفر المنصور العباسي والمهدي. ربما هذا هو ما جعل السلفيين والتقليديين يبدأون في الهجوم على التيارات العقلانية متهمين إياها بالزندقة وغيرها لتسوية الحسابات مع خصومهم.

ويقوم التصنيف الآخر للمعتزلة على الفرق التي انقسم إليها المعتزلة أنفسهم (الشهرستاني، ٢٠٠٨: ١/٤٤)، وهذه الانقسامات تشير أيضاً إلى فترة زمنية محددة في انتشار المعتزلة.

٤.٢ زمن الانتشار على أساس عهد الخلفاء (هارون، المأمون، المعتصم، الواثق)

ومن العوامل الأخرى لانتشار المعتزلة في سياق الزمن، تفاعلهم مع جهاز الخلافة العباسية، وبعد ذلك علاقاتهم في القرن الرابع مع آل بويه. تمكن المعتزلة في هذه الفترة من الاستمرار في مسار تدريجي، ووصلوا أخيراً إلى ذروة النفوذ الاجتماعي (العصر الذهبي). قام أتباع هذه

المدرسة في ذلك الوقت بنشر القضايا الكلامية وتقديم وجهات نظرهم في القضايا الأخلاقية مع الدفاع عن معتقداتهم الدينية بقوة، فلم يصنعوا لأنفسهم مكانة مرموقة بين عدد كبير من الناس فحسب، بل تمكنوا من الحصول على دعم آخر ثلاثة خلفاء عباسيين. «تطوّرت بسرعة عقايد وآراء المعتزلة»؛ (سمسار، ١٣٣٧: ٦٥) في الواقع، حظي المعتزلة بدعم الخلفاء، وكانت السلطة واحدة من الركائز الأساسية لتغطيتهم ودعمهم، وتمكنوا بذلك من نشر أفكارهم في فترة من الزمن. فعلى سبيل المثال، خلال عهد هارون الرشيد وبتدبير يحيى بن خالد، دخل بعض علماء المعتزلة في المناظرات التي كانت تجري في حضور هارون الرشيد (ابن المرتضى، ١٤٠٧: ٥٦، ٥٤). وقد بدأت مشاركة المعتزلة في مجال السياسة والثقافة الإسلامية خلال عهد هارون الرشيد من خلال هذه المناظرات التي جعلت الخليفة على معرفة بآراء المعتزلة فأحال إليهم المهام الثقافية. كان المعتزلة يرون الظروف مناسبة لنشر أفكارهم، فوقفوا إلى جانب بالخلافة وشاركوا في بعض الأمور. (المصدر نفسه: ٥٩، ٥٨). ويعتبر عهد المأمون أحد أكثر الفترات التي شهدت ازدهار المعتزلة حيث وصل بعضهم إلى السلطة وكان لهم نفوذ قوي وعلاقات شخصية مع المأمون (المصدر نفسه: ٦١) مثل هشام بن عمرو الفوطي (المصدر نفسه) وحظي بعضهم بالدعم المالي للخليفة مثل أبو الهذيل العلاف (المصدر نفسه: ٤٩) كما طلب المأمون من الجاحظ تأليف كتاب حول الإمامة (المسعودي، ١٤٠٩: ٢/٢٤٢). «ابوعبداللّه احمد بن محمد بن حنبل وأصله من مرو جاءوا به منذ الطفولة إلى بغداد. لذا في زمن المعتصم ناقش المعتزلة وأمره المعتصم ان يناظر مع أبي داوود كبير المعتزلة آنذاک» (قزويني، ١٣٧٣: ٣٧٥) ونقلا عن مؤلف تاريخ سيستان «... مال المعتصم نحو أهل البدع والمعتزلة»؛ (تاريخ سيستان، ١٣٦٦: ١٨٤)

وفي عصر الواثق وعلى الرغم من عدم رغبة بعض المعتزلة في إقامة علاقات مع الخلفاء، لكن الخلفاء كانوا مصرين على التعامل معهم، لدرجة أن جعفر بن مبشر بن أحمد الثقفي من معتزلة بغداد (ابن النديم، د.ت، ٢٠٨؛ البغدادي، ١٩٧٧: ١٦٢/٧) كان يحضر جلسات المناظرة التي يقيمها الخليفة لكنه لم يكن يعر الواثق اهتماماً (ابن النديم، د.ت: ٣١١) ورفض تلقي الدعم المالي (ابن المرتضى، ١٤٠٧: ١٢٥). وتدل هذه الحالات المتعددة على العصر

الذهبي للمعتزلة، ولذلك فقد كان لعهد الخلفاء وتعامل المعتزلة معهم دور كبير في معرفة تقلبات انتشار المعتزلة في سياق الزمن. سميت هذه الفترة بفضل دعم الجهاز العباسي للمعتزلة، بالعصر الذهبي للمعتزلة. خلال هذه الفترة ، لم يكن المفكرون في هذه المجموعة قادرين على نشر معتقداتهم الكلامية بالحرية الكاملة في مجتمعاتهم ومراكز السلطة الرسمية فحسب، بل حازوا على تشجيع الخلفاء لنشر أفكارهم من أجل الوصول إلى منافسيهم الفكريين، الذين كانوا عموماً من أهل الحديث لإبعادهم عن الساحات الاجتماعية والسياسية. إن سياسة العنف والتشدد والسجن وفرض المعتقدات على الفقهاء والمحدثين وحتى قتل البعض منهم، والأهم من ذلك كله، تيار المحنة ومراقبة الأفكار حول موضوع القرآن، قد تمت برعاية المعتزلة وتشجيعهم في هذه الفترة (عبد الحميد، ١٩٦٧: ١٢٥). على الرغم من أن العصر الذهبي لهذه المجموعة لم يتجاوز ثلاثة عقود في عهد خلافة المأمون (١٩٨ – ٢١٨ هـ) والواثق (٢٢٧ – ٢٣٢هـ)، إلا أن المعتزلة تمكنوا في هذه الحقبة من تعزيز مدرستهم إلى حد كبير واستقطاب الكثير من الناس إليها. لقد جعل الازدهار والمثابرة الفكرية للمعتزلة خلال هذه الفترة من المستحيل حتى على المتوكل القضاء على هذه المجموعة والإعلان من قبل السلطات عن منع الاعتزال. في الوقت نفسه، قام المعتزلة، الذين كانت لديهم العديد من الشخصيات المتنوعة، بتطوير مذاهب مختلفة وبحوث كلامية دقيقة حول مواضيع مثل الجوهر والعرض والجسم والإرادة والمتولدات والمواضيع التي كانت ذات صبغة فلسفية (زنجاني، ١٤١٧: ١٧٩– ١٥٦). في الواقع، يمكن القول أن الحكومة كانت واحدة من الأدوات الأخيرة التي استخدمها المعتزلة لنشر مدرستهم. وبالطبع، فإن أحد أسباب عدم نجاحهم هو هذا الأمر نفسه، لأن التعامل مع السلطة يتطلب سلوكاً ذكياً، حيث عانى المعتزلة من أضرار بالغة من هذا الجانب.

٣. ظاهرة المعتزلة

كظاهرة، فقد كان للمعتزلة قدرات وحيل جعلتهم محط اهتمام الفئات الاجتماعية والحكام السياسيين، وبالتالي، فإن موضوع ظاهرة المعتزلة نفسها هي واحدة من أهم أركان انتشارها،

حيث أن موضوع الظاهرة أكثر إغراءً وفعالية وجاذبية، مما جعل انتشارها أكثر سهولة. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو ما هو الموقف والمحتوى الفكري للمعتزلة؟ وما الذي جعل مدرسة المعتزلة مقبولة ومنتشرة. بعد تكون فرقة المعتزلة، شكلوا بعض المعتقدات والأفكار التي كانت من بين عوامل الجذب الرئيسية بين العلماء وحتى الحكام. في بعض النواحي، لعبت الظروف التاريخية والاجتماعية في هذه الحقبة دوراً مهماً للغاية في جاذبية فكر وظاهرة المعتزلة، لأنه في تلك الحقبة، وفي ضوء اتساع نطاق الحكومة الإسلامية والتعامل مع غير المسلمين، وكذلك ظهور بحوث جديدة، فقد طالبوا بتفسير عقلاني قائم على التفكير العقلاني (غوتاس، ٢٠٠٢: ٢٣) وعلى عكس الظاهريين والمجموعات الأخرى، فقد قدم المعتزلة إجابات جديدة كانت موضع ترحيب وقبول رغم أنها كانت أقل جاذبية بين الجماهير. وربما يتمثل أحد أسباب عدم نجاحهم في هذه النقطة. المواضيع الرئيسية للمعتزلة عبارة عن:

١.٣ العقل

كان المعتزلة من أوائل المفكرين الذين اتبعوا نهجاً عقلياً في الدين وحاولوا تكييف الدين مع العقل. يقول نظام: «على الإنسان المفكر إذا كان حكيماً ولديه قوة الفكر قبل أن يصل إلى دليل شرعي، أن يدرس علم اللاهوت والمعرفة» (الفاخوري، ٢٠١٤: ١/١٣٣)، ويعتقد القاضي عبد الجبار المعتزلي أيضاً أن العقل عبارة عن جملة من العلوم مخصوصة، متى حصلت في المكلف صح منه النظر والإستدلال والقيام بأداء ما كلف (القاضي عبد الجبار، د.ت: ١١/٣٧٥). ويعتقد كذلك أنه بالعقل نعرف الله وبعد معرفته تكتسب سائر الأدلة حجيتها مثل الكتاب والسنة والإجماع، ولو أردنا معرفة الله دون دليل عقلي بالاستعانة بالآيات والروايات، فهذا غير ممكن لأن معرفة الله وصفاته تتوقف على الآيات والروايات وحجية الآيات والروايات تتوقف على معرفة الله (محمدي، ١٩٩٥: ٢٥٧). في الواقع، طرح المعتزلة القضايا النظرية والمشاكل العملية في ضوء الحجج العقلية، وغالباً ما كانت لهم مقاربة دينية، واعتبروا أيضاً أن للدين أهمية كمصدر لتفسير المسلم للعالم والإنسان. وبناء على ذلك، حاول المتكلمون العقلانيون من المعتزلة في سياق أنشطتهم الدينية والاجتماعية، فهم كلمات

الله في ضوء مبادئ العقل. (مجتهد شبستري، ٢٠٠٦: ١٠٢) «اعتمدت نهضة المعتزلة على أساس التعليم المبني على التعقّل والعقل يكون محورها الرئيسي. في تعاليم المعتزلة يهتمون بالعقل أكثر مِن الاخبار والأحاديث»؛ (بارتولد، ١٣٧٥: ٨٤) المعتزلة هي أول فرقة تأسست على أساس الدين والفلسفة وأنها غير سياسية، وتطوّرت حتى أنّ خليفتين مِن الأمويين؛ معاوية بن يزيد ويزيد بن وليد أصبحا من المعتزلة (سمسار، ١٣٣٧: ٥٨-٥٧) وبالتالي، فإن ضرورة إيلاء الاهتمام للعقل من قبل المعتزلة جعلتهم يعتبرون أن للبشرية دوراً خاصاً ولم يفسروا أي شيء دون تحليل وتأمل في الله والجوانب الميتافيزيقية، وهذا الاهتمام بالعقل هو الذي جعل المعتزلة يحظون بالاهتمام.

٢.٣ الاختيار

يعتقد جزء من المعتزلة أن إرادة الله لا تتدخل في أحداث هذا العالم. تدخل إرادة الله يكمن في مجرد أنها أنشأت هذا العالم أولاً. لقد تطور العالم بإرادة ذات الباري ويجري طبقاً لطبيعته الخاصة، والأحداث التي بدأت تظهر تدريجياً تخضع لطبيعة العالم نفسه. ويرفض المعتزلة فكرة الجبر وأن الله هو خالق جميع أعمالنا ويعتقدون أن الله قد منح الإنسان حرية نفسه. (الأشعري، د.ت: ١٣٨٢: القاضي عبد الجبار، د.ت: ٣٨٣). وهكذا، فقد ركز المعتزلة على إرادة الإنسان واختياره؛ معتبرين أنه موضوع للوعي الذاتي يحظى بأهمية كبيرة، وبالتالي فإن إيمانهم بالإرادة الإنسانية جعلهم محط اهتمام وساهم قبولهم وانتشارهم بشكل أسرع. لقد كانت قضية الاختيار والبحث حولها من قبل المعتزلة واحدة من العوامل الرئيسية التي أدت لظهور تيار الموالي، وهذا ما أتاح الفرصة للموالي للتعبير عن سياقهم الفكري في هذا المجال، واعتمد مقاربة جبريّة حدّدت مسبقاً مصيرهم دون تغيير وقرروا كيفية اتخاذ القرار بشأن مصيرهم بأنفسهم. «معبد بن عبدالله الجهنى أول مَن طَرَحَ نظرية حرية الآفعال. هو أول من قال بالقدر في البصرة ثم جاء إلى المدينة وهناک نَشَرَ مذهبه، القدرية هي فرقة تأسست في العصر الأموي ويعتبرون أنّ الأفعال تصدر من الإنسان وقالوا إنّ الإنسان عنده الإرادة الحرة. (سمسار، ١٣٣٧: ٥٨).

٣.٣ منزلة بين المنزلتين

ومن المواضيع الأخرى التي تطرق إليها المعتزلة قضية الكبائر حيث كان الخوارج يعتقدون أن مرتكب الكبائر كافر بينما يعتبر المرجئة أنه مؤمن، لكن المعتزلة يعتقدون أنه ليس كافراً ولا مؤمناً بل يردون أنه فاسق (شهرستاني، ١٤٠٤: ٥٢/١). إن اعتقاد المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين يشير إلى نوع من الاعتدال في ظاهرة المعتزلة وبالتالي في المجتمع الذي كان يشهد سجالاً واسعاً بين الخوارج الذين كانوا يعتقدون أن مرتكب الكبائر كافر والمرجئة الذين كانوا يعتبرون أنه مؤمن. وبطرح فكرة المنزلة بين المنزلتين، فقد تجنب المعتزلة التطرف وتجنبوا تمهيد الطريق في الوقت ذاته أمام التسامح مع مرتكبي الكبائر وكانوا يعرضونهم للمساءلة، وهذا ما جعل أفكارهم تحظى باستقبال بين العامة.

٤. مسارات حركة المعتزلة

تنتشر الظواهر بعد تشكلها من خلال قنوات ومسارات إلى الوجهة المطلوبة، ولكن السؤال المهم هو لماذا تنشر هذه القنوات المحددة الظواهر المذكورة إلى سلسلة من المواقع المحددة دون مواقع أخرى قد تكون مجاورة لها؟ انتشر المعتزلة في وقت لاحق بعد تشكيل فرقتهم من خلال قنوات محددة إلى البصرة ثم إلى بغداد وأهواز وغيرها، كما أنّ ياقوت الحموي يكتب عن خوزستان:«فكريّا أكثرهم من المعتزلة لكن في مناطقهم هناک مذاهب أخرى» (حموي، ١٣٨٠: ٣٢٩/٢) وذلك أمر مهم لأنهم لم ينتشروا إلى مدن مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة والكوفة ودمشق وغيرها، وسواء فهل امتنع المعتزلة أنفسهم عن دخول هذه المدن؟ أم أن الطرق المؤدية إلى وجهتهم كانت تواجه العوائق؟ وبالتالي، فإن المسارات التي ينطوي عليها انتشار وتعميم مدرسة المعتزلة هي في الأساس تلك الطرق التي توجه المعتزلة وتنشر أفكارهم ومعظمها يتمثل في المناظرات ونهضة الترجمة ونظام الخلافة والموالي.

١.٤ المناظرات

كانت المناظرات في البصرة وفيما بعد في بغداد ومدن أخرى واحدة من مسارات انتشار

المعتزلة، حيث أدت كل مناظرة وحلقة دراسية إلى التعريف بالمعتزلة أكثر، ولم تجر هذه المناظرات في البصرة فحسب، بل في بغداد أو في الرقة أيضاً. يقال أن المأمون كان يقيم جلسات مناظرة في زمن خلافته، وكان أستاذه في النقاش أبا الهذيل العلاف (الدينوري، ١٩٩٧: ٣٩٩). روي أن أبا الهذيل العلاف المتكلم المعتزلي (ت ٢٣٥) وهشام بن الحكم دخلا في مناظرة كلامية حامية فقال أبو الهذيل لهشام أنه سيناظره شرط أن يقبل الطرف المغلوب عقيدة الطرف الغالب (الشيخ الصدوق، ١٩٩٢: ٧٤) لكن هشام لم يقبل، وهذا ما يدل على أن المعتزلة كانوا يعتمدون على العقل في المناظرة مما كان يجعل فوزهم حتمياً ويثبت عقيدتهم ويلزم الطرف الآخر بقبولها، وكان فوزهم في كل مناظرة ينعكس في المجتمع بين العامة. ومن الأمثلة الأخرى مناظرة أبي الهذيل العلاف مع رجل من أهل السنة من الرقة حيث روي عن أبي الهذيل العلاّف، قال: دخلت الرقة فذُكر لي أن بدير زكن رجلاً مجنوناً حسن الكلام، فأتيته فإذا أنا بشيخ حسن الهيئة جالس على وسادة يسرّح رأسه ولحيته، فسلّمت عليه، فرد السلام وقال: ممن يكون الرجل؟ قال: قلت: من أهل العراق. قال: نعم، أهل الظرف والادب. قال: من أيها أنت ؟ قلت: من أهل البصرة. قال: أهل التجارب والعلم. قال: فمن أيهم أنت ؟ قلت: أبو الهذيل العلاف. قال: المتكلم ؟ قلت: بلى. فوثب عن وسادته وأجلسني عليها (ابن عبدربه، د.ت: ٣٤٧/٢). وقد قام المعتزلة بمناظرات كثيرة في العديد من الأماكن، وكانت أصداء كل مناظرة تنعكس في المجتمع، لكن هذه المناظرات لم تحدث في أي مكان، لأنه يجب أن تتوفر الأسباب لها، ويجب أن يكون هناك المكان الآمن للمتناظرين. وهذا هو السبب في عدم عقد المناظرات في أي مكان، ومن الأمثلة على ذلك أن المأمون أصدر أمراً بحماية المتناظرين وتوجيههم (ابن النديم، د.ت: ٦٠٢) مما يدل على توافر الظروف المناسبة للمتناظرين، ونتيجة لذلك، لم يتمكنوا من البحث مع بعضهم البعض في جميع الأماكن ولم يكونوا يفضلون في الغالب المناظرات في مكة والمدينة والعديد من الأماكن الأخرى. ودخل بعض المعتزلة مثل عمرو بن عبيد وواصل بن عطا في مناظرات مع الإمام الصادق (الطبرسي، ١٩٩٢: ١٩٧) وتدل هذه المناظرات مع الإمام الصادق وشخصيته الدينية أنه أخذ المعتزلة على محمل الجد وكان على استعداد للحوار معهم. وبينما

لم يكن الإمام الصادق على استعداد للمناظرة مع أية مدرسة. لذلك فإن المناظرات مع الإمام الصادق قد زادت من مكانة المعتزلة، وهذا يمكن أن يعتبر من الأسباب التي أدت إلى توسع المعتزلة وانتشارهم على نطاق أكبر.

٢.٤ نهضة الترجمة

إن دور المعتزلة في نهضة الترجمة هو عامل آخر من عوامل انتشارهم، حيث أن المأمون كان من أعظم مؤيدي نهضة الترجمة، وبما أن المعتزلة كانوا على علاقات جيدة مع الخليفة، فقد لعبوا دوراً هاماً في ترجمة ونقل العلوم اليونانية. في الواقع، كان تأثيرهم على نهضة الترجمة ذا دور مهم في نظرة الناس لهم على أنهم محبون للعلم وكانوا محط اهتمام ليس فقط في العراق بل في أماكن أخرى كذلك. وهكذا، فقد أدت نزعة الخليفة إلى المعتزلة إلى ازدهار المناظرات العلمية والفلسفية وترجمة وتأليف الكتب التي لا تعد ولا تحصى في رفض أو تأكيد النظريات والآراء الخاصة بالأطراف المتخالفة أو المتفقة. وأمر الخليفة أيضاً بتثبيت آراء المعتزلة والرد على الشبهات التي تعرضت لها المعتقدات الإسلامية، بحيث تم تأليف وترجمة العديد من الأعمال الفلسفية وخاصة أعمال أرسطو إلى العربية. (ابن النديم، د.ت: ٣٠١؛ ابن القفطي، ١٣٧١: ٥١). لذلك، يجب اعتبار نهضة الترجمة أحد مسارات انتشار المعتزلة، وفي الواقع فقد كانت حركة الترجمة متمركزة في بغداد، وكانت النتيجة تجمع المعتزلة في البصرة أو بغداد، وأينما كان الأمر يتعلق بقضايا فكرية وعقلية، كان من الممكن انتشار المعتزلة من خلال المناظرات ونهضة الترجمة. في البداية ، كانت نهضة الترجمة عبارة عن تيار فكري وتطورت بدعم من خليفة، وبما أن كان تيار المعتزلة كان عبارة عن تيار عقلاني، فقد لعبوا دوراً مهماً في الاستفادة من هذه النهضة، ومن خلالها تمكن المعتزلة تحت لواء نهضة الترجمة من تطبيق نهجهم العقلاني.

٣.٤ جهاز الخلافة

يمكن القول إن أهم مسار لانتشار المعتزلة هو جهاز الخلافة، وبفضل دعم الخلفاء، تمكن المعتزلة من تشكيل تيار قوي في تاريخ الفكر الإسلامي، بل يمكن القول أيضاً أن قنوات

انتشار المعتزلة الأخرى تبلورت في ضوء هذه القناة المتمثلة في نظام الخلافة. دعم الخلفاء المعتزلة ولا سيما من هارون الرشيد إلى الواثق وعززوا معتقداتهم وتفوقهم جاعلين انتشارهم أكثر سهولة. وفي ظل دعم الخلفاء، بلغ شيوخ المعتزلة مناصب مهمة جداً، فعلى سبيل المثال في عهد الواثق، كان المعتزلة مدعومين وتم قمع أهل السنة، حتى أن الواثق اختار أصحاب الديوان من المعتزلة ليحكموا بالعدل بين متظلمي الخراج. (ابن المرتضى، ١٤٠٧: ٧٢). وفي عهد الواثق، كان محمد بن عبد الملك بن زيات المعتزلي وزيراً وكان أحمد بن أبي داود قاضيه الذي جاء عن طريق يحيى بن أكثم إلى بلاط مأمون والمعتصم (ابن النديم، ١٩٦٤: ٣١٠-٣٠٩)، وكان مفوضاً بالكامل بأمر الخليفة. (ابن المرتضى، ١٤٠٧: ٧٢) وكان المأمون هو نفسه من المؤمنين بحدوث القرآن الكريم، وأمر في عام ٢١٨ هـ جميع الناس بقبول حدوث القرآن (الطبري، ٢٠٠٨: ١٩٥/٧). «سعى المأمون في أواخر خلافته نشر وفرض عقيدة المعتزلة بخلق القرآن وأراد أن يفرضه على القضاة وأصحاب السنة والحديث للإعتراف به لكن سُكّان العاصمة خالفوه»؛ (دوري، ١٣٧٥: ١١٧؛ أنظر: مادلونگ، ١٣٨٧: ١٥٠-١٢٣)

وقد لقيت تعليمات المأمون مخالفة محمد بن سعد الكاتب الواقدي وأبي مسلم المستملي ويزيد بن هارون ويحيى بن معين وزهير بن حرب أبو خثيمة وإسماعيل بن داوود وإسماعيل بن أبي مسعود وأحمد بن الدورقي (ابن الأثير، ٢٠٠٦: ٣/٦)، لكن تم استدعاؤهم إلى المحكمة وأدى غضب الخليفة إلى تراجعهم عن معارضتهم. إن هذا الدعم الواضح من قبل الخلفاء وتوظيف المعتزلة في مناصب القضاء والوزارة أتاح فرصة تاريخية للمعتزلة للانتشار بسبب هذا الوضع المهم، لذلك تعتبر الخلافة الطريق الرئيسي لانتشار المعتزلة، حيث أن الخلافة كانت تركز اهتمامها على بغداد، حتى أنها نافست الحرمين. ونتيجة لذلك، انتشر المعتزلة في الأماكن التي يهتم بها الخلفاء لكي يكونوا على وفاق مع مصالح الخلفاء.

٤.٤ الموالي

ومن قنوات انتشار المعتزلة الأخرى يمكننا الإشارة إلى الموالي الذين نزعوا إلى الاعتزال نظراً إلى العقائد العامة للمعتزلة. بعد اعتناق الموالي للاعتزال، وبما أنهم كانوا في إياب وذهاب إلى

مسقط رأسهم، فقد كان لهم دور هام في نشر أفكار المعتزلة حتى أن ثمامة بن الأشرس، هشام بن عمرو الفوطي من موالي بني شيبان، أبو الهذيل العلاف من موالي عبد قيس ونظّام سيّار البلخي البصري وغيرهم كانوا من الموالي (البغدادي، ١٩٧٧: ١٥٧؛ المصدر نفسه: ٣٦٦/٣؛ الذهبي، ١٤١٣: ١٠/ ٥٤٧؛ *المصدر نفسه:* ١٦/ ٤٧٠). وقد تتلمذ على يد أبي الهذيل الكثير من الأفراد نظراً لعمره الطويل ومواصلته التدريس. ويمكننا القول أن المأمون كان واحداً منهم. كان أبو الهذيل ماهراً في المناظرة والجدل وكانت معلوماته واسعة لدرجة أن البعض بالغ في وصفها. كان مجتهداً في نشر أفكاره خلال عهد المأمون، وهي فترة النضج والحيوية. إن رحلته ومناظراته مع علماء المرجئة والجبريين والإمامية وحتى متكلمي المعتزلة يظهر هذه الجهود (الخطيب البغدادي، ١٤١٧: ٣٦٦/٣ والشهرستاني، ١٤٠٤: ٥٣/١). وكان الموالي يميلون نحو المدن التي كانت تشهد تعصباً أقل للقومية العربية. ولهذا السبب، كان معظمهم مترددين في الذهاب إلى أماكن حدثت فيها نزعات عنصرية وعربية، وكانوا يفضلون الأماكن التي تقدر الموالي وتقبلهم كجزء من المجتمع.

٥. وجهة انتشار ظاهرة المعتزلة

المقصود بوجهة الانتشار هو قبول ظاهرة الانتشار، وأن هذه الظاهرة تصل إلى وجهة ما عبر قنوات محددة في سياق زمني وتنمو وتزدهر هناك، حتى أنها تنتشر من خلال نفس الوجهة إلى أماكن بعيدة عن مكان الظهور الأولي لهذه الظاهرة؛ وقد انتشر المعتزلة من خلال هذه المسارات والقنوات في مناطق أخرى مع مرور الوقت وبصفة خاصة في بغداد، حتى أن بغداد أصبحت مركزاً مهماً للغاية في تاريخ المعتزلة، ولكن الشيء المهم هو أن هذه الظاهرة لا تصل إلى أي مكان أو وجهة كانت، لكن وجهتها تكمن في عوامل الاستقطاب والقدرات التي تجعل هذه الظاهرة مقبولة. وتعتبر بغداد الوجهة الأبرز والأكثر شهرة والتي تنتهي إليها معظم مسارات الانتشار، وبالتالي فقد استقر المعتزلة في بغداد بعد البصرة، وأقاموا علاقات وثيقة مع السلطات والخلفاء، وفي الواقع فإن بغداد تتميز بمجموعة من معالم الجذب التي استقطبت المعتزلة إليها، كما أن وجود مركز الخلافة في مدينة بغداد هو أحد الأسباب الرئيسية

لاستقطاب ظاهرة المعتزلة، لأن العاصمة بغداد كانت تجمعاً للمجموعات الفكرية والعرقية والثروات الضخمة. في الواقع، كانت بغداد محور تبادل الآراء الفكرية والعلاقات الاقتصادية؛ يمتلك الجغرافيون المسلمون عموما أوصاف مهمة من العراق وبغداد: منهم المقدسي الذي أشار إلى عدة مذاهب من المسلمين وغير المسلمين كما أشار إلى العلماء الذين ظهروا في تلك المذاهب (مقدسي، ١٣٦١: ١/١٧٤) «وبه مجوس كثيرة وذمّته نصارى ويهود، و قد حصل به عدّة من المذاهب الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة مع جليلة فقهاء العراقين بالاعوام وبه مالكيّة واشعريّة ومعتزلة و نجّاريّة وبالكوفة الشيعة الّا الكناسة فإنها سنّة (المقدسي، د.ت: ١٢٦) وأنّه ذكر العراق بأنه أجمل المناطق وأعذبها ومَن تربّى فيه يحصل على النبوغ لو كانت عنده القابلية لذاک». (مقدسي، ١٣٦١: ١/٤٦) و «هذا إقليم الظرفا، ومنبع العلماء، لطيف الما، عجيب الهوا، ومختار الخلفاء، اخرج اباحنيفة فقيه الفقهاء، وسفيان سيّد القرّاء،، ومنه كان ابو عبيدة والفرّاء، وأبو عمرو صاحب المقرا، وحمزة والكسائيّ وكلّ فقيه ومقرئ واديب، وسريّ وحكيم وداه وزاهد ونجيب، وظريف ولبيب، به مولد إبراهيم الخليل، واليه رحل كلّ صحابيّ جليل، اليس به البصرة التي قوبلت بالدنيا، وبغداد الممدوحة في الورى، والكوفة الجليلة وسامرّا، ونهره من الجنّة بلا مرا»؛ (المقدسي، د. ت: ١١٣) «...وللعراق منها رفق عظيم بغداد في مصر الإسلام، وبها مدينة السلام، ولهم الخصائص والظرافة، والقرائح واللطافة، هواء رقيق، وعلم دقيق، كلّ جيّد بها، وكلّ حسن فيها، وكلّ حاذق منها، وكلّ ظرف لها، وكلّ قلب اليها، وكلّ حرب عليها، وكلّ ذبّ عنها، هي أشهر من ان توصف وأحسن من ان تنعت وأعلى من ان تمدح أحدثها ابوالعبّاس السفّاح ثم بنى المنصور بها مدينة السلام وزاد فيها الخلفاء من بعده»؛ (المقدسي، د. ت: ١١٩).

ويقول اليعقوبي إن الخليفة أبا جعفر المنصور وصف بغداد على النحو التالي: «... وإلا فجزيرة بين دجلة والفرات؛ دجلة شرقيها، والفرات غربيها؛ مشرعة للدنيا، كل ما يأتي في دجلة، من واسط، والبصرة، والأبلة، والأهواز، وفارس، وعمان واليمامة، والبحرين، وما يتصل بذلك فإليها ترقى، وبها ترسى وكذلك ما يأتي من الموصل، وديار ربيعة، وآذربيجان، وأرمينية، مما يحمل في السفن في دجلة. وما يأتي من ديار مضر والرقة، والشأم، والثغور، ومصر،

والمغرب، مما يحمل في السفن في الفرات، فيها يحتط وينزل، ومدرجة أهل الجبل وأصبهان وكور خراسان» (اليعقوبي، ١٩٨١: ٦). إن هذا الوصف لمدينة بغداد من قبل أبي جعفر المنصور، مؤشر جيد على مركزية بغداد من الناحيتين الاقتصادية والفكرية، لذلك فإن الوضع الاقتصادي والجو الذي كان سائداً في بغداد لعبا دوراً مهماً جداً في انتشار ظاهرة المعتزلة، كما أشير إلى أن اهتمام الخلفاء بالمعتزلة ومنحهم المناصب جعلهم ينتشرون إلى بغداد، ويعتقد البعض أن بغداد كانت ذات نزعات شيعية، وأن بشر بن معتمر ذهب إلى بغداد بسبب خلاف مع واصل، حيث أوجد تيار المعتزلة في بغداد بنزعة شيعية وإمامية ، وهو ما يرجع إلى المناخ الملائم في بغداد.

٦. النتائج

من خلال دراسة تكون وانتشار ظاهرة المعتزلة على أساس نظرية الانتشار، يمكن القول إن الظروف الجغرافية والفضاء الجغرافي هي العوامل الرئيسية التي تؤثر على ظهور وانتشار أية ظاهرة ، ومن المستحيل تجاهل الدور الحاسم للبيئة الجغرافية. بطريقة ما، تشكل البيئة الجغرافية نوعاً خاصاً من الظواهر التي تتناسب مع إطار ذلك السياق والنسيج الموجود. ولذلك، تستند الظواهر إلى النسيج نفسه في تكونها، وحتى أن الظاهرة نفسها تتأثر في بعض الأحيان بالبيئة الجغرافية، لأن كل ظاهرة تنتشر في مكان ما يتناسب معها بشكل أفضل من أماكن أخرى، وبالتالي فإن الظاهرة لا تنتشر إلى أي مكان ووجهة. تأثر المعتزلة الذين ظهروا في البصرة بالأجواء المهيمنة على البصرة نفسها. وبفضل الروابط البحرية والقرب من جندي شابور التي ورثت تراث الفكر الإغريقي، فقد أصبحت البصرة مكاناً حظيت فيه العلوم الفكرية والعقلية بالاهتمام الكبير، وبرز المعتزلة كتيار عقلاني في البصرة. ولذلك، فإن الموقع الجغرافي للبصرة يتدخل إلى حد كبير في عقلانية المعتزلة، وهذه العلاقة بين الموقع الجغرافي والسياق والنسيج هي التي أدت إلى عدم ظهور المعتزلة في الحرمين (مكة والمدينة) أو الكوفة، بل في البصرة، كما أن تأثير الموقع الجغرافي جعل أغلب مسارات انتشار المعتزلة تنتهي إلى بغداد، لأن بغداد تتمتع أيضاً بموقع جغرافي مميز قادها إلى أن تكون عاصمة المنصور. كما تدخلت في انتشار

المعتزلة مجموعة من العوامل التي كانت في بادئ الأمر عبارة عن ظاهرة المعتزلة ذاتها، وقد حظي المعتزلة بالقبول في المجتمع في ضوء البحوث والأفكار التي طرحوها. كما أن العامل الآخر في انتشار المعتزلة هو جهاز الخلافة. ويمكن القول على نحو ما أن علاقة المعتزلة بجهاز الخلافة كانت مؤثرة جداً في انتشارهم، حتى أن جهاز الخلافة ذاته كان مؤثراً على قنوات ومسارات انتشار ظاهرة المعتزلة، لذلك لم تكن المسارات لتؤدي إلى أية وجهة، وأن انتشار الظواهر لا يتم بشكل عشوائي، بل بناءً على سلسلة من العوامل التي تسهم في انتشارها.

المصادر

ابن اثير، عزالدين (١٣٨٥ق). **الكامل في التاريخ**، بيروت: دار صادر . دار بيروت.

ابن بابويه القمي، ابي جعفر محمد (١٣٧١ش). **رساله في الاعتقادات شيخ صدوق**، محمد علي ابن سيد محمد الحسني، طهران: علميه اسلاميه.

ابن عبدربه، احمد بن محمد (د. ت). **العقد الفريد**، بيروت: دارالكتب العلميه.

ابن عثمان الذهبي (د. ت). **المغني في الضعفاء**، التحقيق نور الدين عتر، د. ن.

ابن فقيه، أحمد بن محمد (١٤١٦ق). **البلدان**، محقق يوسف الهادي، بيروت: عالم الكتب.

ابن مرتضى، أحمد بن يحيى (١٤٠٧ق). **طبقات المعتزله**، بيروت: منشورات دار المكتبه الحياه.

ابن نديم، محمد بن اسحاق (١٩٦٤م). **الفهرست**، بيروت: چاپ افست.

ابن‌قفطي، ابوالحسن‌علي‌بن‌يوسف (١٣٧١ش). **تاريخ الحكماء**، طهران: دانشگاه طهران.

اشعري، علي بن إسماعيل (د. ت). **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، التحقيق: هلموت ريتر، بيروت: دار إحياء التراث العربي،

اصطخرى، إبراهيم بن محمد (٢٠٠٤م). **المسالك والممالك**، التحقيق والتصحيح: محمد جابر عبدالعال، قاهره: ناشر الهيئة العامة لقصور الثقافة.

اوليري، دليسي (١٣٧٤ش). **انتقال علوم يوناني به عالم اسلامي**، ترجمه احمد آرام، طهران: جاويدان.

بارتولد، واسيلى ولاديميروويچ (١٣٧٥ش). **جايگاه مناطق اطراف درياى خزر در تاريخ جهان اسلام**، طهران، پژوهشگاه علوم انساني و مطالعات فرهنگي.

بغدادي، خطيب (١٤١٧ق). **مدينة السلام يا تاريخ بغداد**: دار الكتب العلمية.

بغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد (١٩٧٧م). **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية**، بيروت: دارالآفاق الجديدة.

تفضلي، احمد (١٣٧٦ش). **تاريخ ادبيات ايران پيش از اسلام**، به‌کوشش ژاله آموزگار، طهران: سخن.

ثعالبي، ابومنصور عبدالملک بن محمد (١٣٦٨ش). **تاریخ ثعالبي (غرر الخبار ملوک الفرس وسيرهم)**، ترجمه محمد فضائلي، طهران: نقره.

جعفری، یعقوب (بهار١٣٧٤). «**دیدگاه‌های مختلف معتزله بصره و معتزله بغداد**»، کلام اسلامی، ش١٣، ص٤٦-٣٩.

جليليان، شهرام (١٣٩٣ش). **تاريخ جندي شاپور**، اهواز: دانشگاه علوم پزشكي جُندي شاپور.

جهشياري، ابوعبدالله محمدبن عبدوس (١٣٥٤ش). **ترجمه الوزراء والكتاب**، ترجمه ابوالفضل طباطبائي، طهران: دنیای کتاب.

دوری، عبدالعزیز (١٣٧٥ش). **بغداد، چند مقاله در تاریخ و جغرافیایي تاریخي**، طهران: بنیاد دائره المعارف اسلامي.

دينوري، احمدبن داود (١٣٦٤ش). **أخبار الطوال**، ترجمه محمود مهدوي دامغاني، طهران: ني.

ذهبی، شمس‌الدین محمدبن احمد (١٤١٣ق). **تاريخ‌الإسلام و وفيات المشاهير والأعلام**، التحقيق: عمرعبدالسلام تدمری، بيروت: دار الكتاب العربی.

ربانی، گلپایگانی، علی (١٣٧٧). **فرق و مذاهب کلامی**، طهران: دفتر تحقیقات و تدوین‌کتب درسی ـ مرکز جهانی علوم اسلامی.

زنجانی، فضل الله (١٤١٧ق). **تاريخ علم الكلام في الاسلام**، مشهد: الآستانه الرضويه المقدسه.

سمسار، محمد حسن (١٣٣٧ش). **جغرافیای تاریخی سیراف**، طهران: زیبا.

شکوئی، حسین (١٣٨٢ش). **اندیشه‌های نو در فلسفه‌ی جغرافیا**، طهران: موسسه جغرافیایی و کارتوگرافی گیتاشناسی.

شهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (١٤٠٤ق). **الملل والنحل**، التحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة.

طبرسی، احمد بن علی (١٣٧١ش). **احتجاج**، ترجمه احمد غفاری مازندرانی، طهران: مرتضوی.

طبري، أبوجعفر محمد بن جرير (١٣٨٧). **تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم، بيروت: دارالتراث.

عبدالجبار، قاضي (د. ت). **المغني في ابواب التوحيد والعدل**، د. ب.

عبدالحميد، عرفان (١٩٦٧م). **دراسات في الفرق والعقائد الاإسلاميه**، بغداد: مطبعة الإرشاد.

الفاخوری، حنا (١٣٩٣ش). **تاریخ فلسفه در جهان اسلامي**، جمعی از مترجمان، طهران: شرکت انتشارات علمی و فرهنگی.

قزويني، زکريا بن محمد بن محمود (١٣٧٣ش). **آثار البلاد وأخبار العباد**، ترجمه جهانگير ميرزا، طهران، اميرکبير.

کاهن، کلود (١٣٦٣ش). «**فلسفه و جهان شناسی**»، **تاريخ ايران از اسلام تا سلاجقه**، ج٤، پژوهش دانشگاه کيمبريج، گردآورنده ريچارد نلسون فراي، ترجمه حسن انوشه، طهران: اميرکبير.

گمارت، دی (زمستان ١٣٨٢ش). «**تاريخ و عقايد معتزله**»، ترجمه حميد ملک مکان، مجله هفت آسمان، ش ٢٠، صص١٧٦- ١٥٧.

گوتاس، ديميتري (١٣٨١). **تفکر يوناني، فرهنگ عربي**، ترجمه محمدسعيد حنايي کاشاني، طهران: مرکز نشر دانشگاهی.

مادلونگ، ويلفرد (١٣٨٧ش). **مکتب‌ها و فرقه‌های اسلامی در سده‌های ميانه**، ترجمه جواد قاسمی، مشهد: بنياد پژوهشهای اسلامی.

مجتهد شبستری (١٣٨٥ش). **هرمنوتيک، کتاب و سنت**، طهران: طرح نو.

محمدی، حسين (١٣٧٤). «**ديدگاه‌های قرآنی معتزله**»، فصلنامه پژوهش‌های قرآنی، س١، ش٣، صص٢٦٦-٢٤٣.

مسعودي، أبوالحسن على بن الحسين (١٤٠٩ق). **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، قم: دار الهجره.

مقدسی، ابوعبدالله محمد بن احمد (١٣٦١ش). **أحسن التقاسيم في معرفه الأقاليم**، ترجمه علينقی منزوی، طهران: نشر شرکت مولفان و مترجمان ايران.

المقدسي، محمد بن احمد شمس‌الدين کرمي (د. ت). **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، *بيروت:* دار صادر.

مؤلف ناشناس (١٣٦٦ش). **تاريخ سيستان**، طهران: پديده خاور.

نوبختی (١٣٨٥ش). **فرق الشيعه**، ترجمه محمد جواد مشکور، قم: سازمان تبليغات.

ولوی، علي محمد (١٣٦٧ش). **تاريخ علم کلام و مذاهب اسلامی**، طهران: بعثت.

وينتر، انگبرت و بئاته ديگناس (١٣٨٦ش). **قدرت جهانی در کشاکش و همزيستی**، ترجمه کيکاوس جهانداری، طهران: فروزان.

ياقوت حموی، ياقوت بن عبدالله (١٣٨٠ش). **معجم البلدان**، طهران: سازمان ميراث فرهنگي کشور.

يعقوبی، احمد بن اسحق (١٣٦٠ش). **البلدان**، ترجمه محمد ابراهيم آيتي، طهران:بنگاه ترجمه و نشرکتاب.

Rogers. M. Everett***, diffusion of innovation***, Collier Macmillan Canada, newyork. 1971.

Lawrence A Brown***, Diffusion: Geographical Aspects***, Elsevier, 2015.

Haggett, Peter, ***Locational Analysis in Human Geography***. Edward, Arnold, London, 1968.

Palloni, alberto, ***Theories and Models of Diffusion in Sociology***, Center for Demography and Ecology, 1997.

Elihu Katz, Martin L***. Levin and Herbert Hamilton***, Traditions of Research on the Diffusion of Innovation, American Sociological Review, 1963.